

## المراضع

أقبلَ المراضع إلى مكة عجاجاً نحافاً، تحملهنَّ حُمُرٌ عجاجٌ نحافٌ، ويصحبهن أزواجهن قد مسهم الضر، وأعياهم الكسب، واشتدت عليهم السنة، وأجدبت بهم الأرض، فما يجدون إلى أمن ولا دعة ولا حياة سبيلاً. وقد أقبلوا كدأب أهل البادية إلى مكة، يلتمسون الرضعاء أبناء السادة والمترين في قريش، ويبتغون بذلك فضلاً من مال، وناقلةً من نعيم، وحظاً من هذا البر الذي تطمع فيه المراضعُ عند أهل الرضعاء. فلما القوا رجالهم، انحدر المراضع إلى مكة يعرضن أنفسهن على دور الأغنياء وأهل الثراء، ومنازل السادة وأصحاب الشرف من أهل البطحاء. وأسرع أزواجهن إلى المسجد يطوفون ويلقون سراً الناس من قريش، فيسمعون منهم ويتحدثون إليهم، ويستعينون بهم على احتمال أثقال الحياة في تلك البادية النائية، بادية بنى سعد بن بكر. وما هي إلا طوفةٌ في الضحى على بعض المنازل والدور حتى آب المراضعُ موفورات محبورات، قد وجدت كلَّ واحدةٍ منهن رضيعاً من أسرة كريمة مؤسرة، فامتألت يدها بالمال، ونفسها بالأمل، وقلبها بالغبطة والأمن على قوت العيال، إلا حليلة بنت أبي ذؤيب؛ فإنها عادت إلى زوجها كئيبة محزونة لا تحمل إلا ابنها الهزيل النحيل الذي يصيح في غير انقطاع، ويبكى في غير هدوء، لشدة ما مسه من ألم الظم والجوع.

ولقى الإعرابي امرأته الشابة محزونةً مثلها، كئيبةً مثلها، ولا يؤذيه ما يحس من الجوع والظمأ امرأته البائسة. قال: إني لأرى أتراك من المراضع يرجعن موفورات محبورات يحملن الرضعاء، فما بالك تعودين لا تحملين رضيعاً إلا هذا الطفل؟ ألعك قد دلت الناس على مكاننا من البؤس وحظنا من الفاقة حين احتملت هذا الطفل الذي لا ينقطع له صياح! ألعك قد أيست الأمهات وأحقت الآباء ألا يلقي أبناءهم عندك ما يرويه من ظمأ أو يشبهه من جوع! ليتني لم انحدر مع الناس إلى المسجد، وليتني بقيتُ هنا أحفظ عليك هذا الطفل حتى لا يسمع الأمهات والآباء له بكاء ولا شكاة، وحتى لا يرى الآباء والأمهات عليه بؤساً ولا ضرراً! قالت: والله ما صد عنى الآباء والأمهات، ولقد أسكت هذا الطفل فما بكى ولا شكا، وما أحس أحد على ولا عليه ضرراً أو شراً، وإنما سددت أنا عن رضيع صد عنه الأتراب من قبلي. قال الإعرابي: وفيم صدكن عنه واجتتابكن له؟ قالت: يتيم ليس له أب يرعاه أو يكلؤه، إنما هو إلى أمه وجده. وما تصنع أمه وما يصنع جده، وماذا تنتظر من بر الأمهات بالمراضع، ومن بر الجدود بالحفدة وإنهم لكثير! قال صدقت، وما لإرضاع اليتامى والمساكين أقبلنا من ديار بنى سعد! وإنى لأجد في نفسي إشفاقاً على هذا اليتيم ورحمةً له، ولكن ماذا نصنع به في تلك الأرض النائية إذا لم يصل إليه وإلينا من بر أهله ما يقيمه ويقمينا ويُصلح من حاله ومن حالنا! قالت: لقد رأيتُه فأحببته، ونظرتُ

إليه فَرَفَقْتُ له. ولقد آنست من أمه دعةً وليئاً. ولقد نازعتنى نفسى إلى أن أحمله لولا أنى أشفقتُ مما تقول، ولولا أنى ذكرت الجذب وشدة السنة وانقطاع المادة، وأشفقت عليه مما نحن فيه. قال الأعرابي: فسنفقلُ إذاً كما أقبلنا ويقفل القوم راضين! وإنى والله يا ابنة أبى ذؤيب ما أدرى أتبلغنا آتائنا وشارفنا<sup>(١)</sup> ديار بنى سعد، وإنك لتعلمين أن آتائنا منهوكة مكدودة، وأن شارفنا ما تبصُّ قطرة من لبن. قالت؛ لنقم فإن الأطفال يولدون، ولعل الله أن يرزقنا بين اليوم وغد<sup>٨</sup> رضيعاً نجد عند أهله ما يرضينا.

وهم المراضع بالقول، وأخذت بنت أبى ذؤيب تنظر إليهن محزونة مكلومة، يؤذيها ما ترى من إنجاحهن وإخفاقها، ومن ققولهن وتخلفها. يؤذيها ما ترى من إنجاحهن وإخفاقها، ومن ققولهن وتخلفها. وأخذ الأعرابي ينظر إلى رفاقه يشدون الرحال على المطايا، ويحملون النساء على الأتُن، فيؤذيه ذلك ويغيظه، ولكنه يُخفى ما يجد من الغيظ ويظهر التجلد والصبر. حتى إذا مضى اليوم وأمعنوا فى الطريق وبَعُدُوا عن مرمى العين، نظر الرجل إلى امرأته، ونظرت المرأة إلى زوجها، ونظر الزوجان إلى ابنتهما واستمعا لبكائه، وإذا هى تقول لزوجها: ما أدرى! لعلى لم أحسن حين جارىتُ أترابى وأعرضتُ عن هذا اليتيم، وإن نفسى لتنازعنى إليه، وإن قلبى ليعطفنى عليه، وإنى لأحس كأنه يدعونى، وإنى لأشعر كأنى لا أستطيع عنه صبراً، وإنى لأرجو أن استجبتُ لهذا الدعاء الخفى أن يكون الله قد قَدَّرَ لنا خيراً وآثرنا ببعض ما نحب! قال: فلا عليك يا ابنة أبى ذؤيب! اذهبي إلى يتيملك فخذيه؛ فإنى أكره أن يرحلَ القومُ ونبقى، وأن يصلوا على ديار بنى سعد، فيتحدثُ المراضعُ أنهم قد ظفروا بالرضعاء، وأن نفوس الآباء والأمهات قد انصرفت عنك وزهدتُ فيك.

وتتهض بنت أبى ذؤيب فتعود على آمنة فتعرضُ عليها إرضاعَ الطفل، وإذا آمنة تأبى وقد آذاها ما رأت من إعراض المراضع وانصرافهن، وعلى وجهها آيات حزن عميق، وفى صوتها بقية من بكاء، وآمئها بركةٌ تعينها على الإباء وتحرضها على الامتناع. ولكن ابنة أبى ذؤيب تنظر إلى الطفل فإذا قلبها يمتلئ حباً له، وإذا هى تحس أنها مدفوعةٌ إليه دفعاً، وإذا هى تُسرع إلى الطفل فترفعه بين يديها وتدنيه من صدرها، وإذا الطفل يلتمس الثدي كأنما كان منه على ميعاد، وإذا هو يشرب حتى يروى، وإذا بنت أبى ذؤيب تجد من اللبن ما لم تكن تجد من قبل، وإذا آمنة تستجيب لها، وكيف تأبى عليها وقد رأت من حبها للطفل ومن إرضاعها له ما رأت! لقد أصبحت هذه الظنُّرُ له أمًا. قالت آمنة: خذيه ولا تراعى؛ فإنى لأرجو ألا تجدى منه خيراً؛ فقد حملته فما وجدت له ثقلاً، ولقد انتظرتة تسعة أشهر فما أحسست مما يُحس النساء قليلاً ولا

(١) الأتان: أنثى الحمير. والشارف من النوق: المسنة.

كثيرًا. ولولا غاشية الحزن التي غشيتنا بفقد أبيه لكانت هذه الأشهر أسعد ما تظفر به امرأة من دهرها. ولكن الحوادث تحدث والخطوب تُلم والآمال تُقطع وقد كان يرجى أن تتصل، والسحب تتراكم فتحجب ضوء الشمس! ولقد وضعتُ هذا الصبي فما عرف صاحباتي على وعليه وشيئًا مما تعودن أن يعرفن على الأمهات والولدان. وإنك لتتكرين يا ظنرُ لو تسمعين. قالت حليلة: وماذا أسمع، وماذا أنكر؟ قالت أمنة: لم أكن تلك الليلة في دار من دور قريش، وإنما كنت في مكان لم يألفه الناس: كنت في بحر من النور كله رحمة وبر ورضوان، وما لك لا تتكرين هذا يا ظنرُ وقد أنكرته أنا وأنكرته صواحيبي! ومالك لا تعجبين يا ظنرُ وقد عجبثُ وعجبت صواحيبي وعجب جده الشيخ! سلى حاضنته هذه تتبئك بما رأت وما سمعت. سلى من شئت من نساء بنى هاشم ورجالهم تعلمى أن لابنى هذا اليتيم شأنًا ليس لغيره من أبناء الأغنياء وأهل اليسار. لا تراعى يا ظنرُ؛ فإنك تحلمين وليدًا كريمًا لأب كريم، وجد كريم. ثم انهلت من عينها دموع غزار، وقالت في صوت يقطعه البكاء: لا تياسى يا ظنرُ؛ فإن معروفنا على قلته سيصل إليك، ورُبَّ قليل خير من كثير. قالت حليلة: وقد رَقَّ قلبها، وجادت عينها ببعض الدمع على غير عادة الأعرابيات: لا بأس عليك يا ابنة وَهَب! فإنى والله ما استطعت صبرًا على هذا الصبي منذ رأيتَه. وإنى والله ما أدري ما الذى عطفنى عليه حتى رجعت إليك آخذه منك. وقد كنت أستطيع القفول، وقد كنت أستطيع المكث ف يبلدكم هذا يومًا أو أيامًا؛ فالأطفال يولدون، وسرأة قريش فى حاجة إلى المراضع كل يوم، ولكنه والله أمرٌ يراد. وانصرفت حليلة بابنها الجديد راضية مسرورة، قانعة بما زودتها به أمنة من البر والمعروف حتى إذا انتهت إلى زوجها الأعرابى لقيها باسم الثغر، مُشرقَ الوجه، سعيدًا أن لم تعدْ إليه صفرَ اليدين. ولم يكن ينظر إلى الطفل حتى انطق لسأته، وإذا هو يقول لامرأته: إيه يا ابنةً أبى ذؤيب! ما رأيتُ كالسيوم وجهًا مشرقًا يفيض منه البشر؛ إنى والله لأرجو أن يكون لنا من هذا الغلام خير.

وينهض الأعرابى إلى شارفه يلتمس فى ضرعها الجاف قطرات من لبن يُبَلِّ بها ظمأ امرأته، وينقع بها بعض غلته. فما أسرع ما يأخذه عجبٌ لا ينقضى حين يرى شارفه حافلة تمنحه من اللبن ما يريد وما تريد امرأته، وفوق ما يريد وما تريد امرأته. وينظر الأعرابى فإذا ابنه الأول يجد عند أمه ما يُرويه ويرضيه، وإذا وجهه الكالح المظلم قد أخذ يُشرق ويُضيء، وإذا ابتسامه حلوة ظاهرة قد ارتسمت على ثغره البريء، وإذا هو يقول لامرأته: تعلمى يا ابنةً أبى ذؤيب أنك قد حمل نَسمة مباركة!

وتنهض الظنرُ إلى أتانها فتركبها وتضع الرضيع بين يديها، وينهض الأعرابى إلى شارفه فيمتطيها، ويرميان بنفسيهما فى الطريق يلتسان الركب من بنى سعد، والركب بعيد قد دُفع به فى الطريق طويلة نائية. ولكن الأعرابية تجدُ من أتانها نشاطًا وحدة، ولكن الأعرابى يجدُ

من شارفة قوة ومرحًا، وهما يمضيان وكأنهما تُطوى لهما الأرض طيًّا. ثم يقول الأعرابي لامرأته مدى عينيك يا ابنة ذؤيب، أترين شيئًا؟ قالت: أي والله أنى لأراهم، وإنهم لأدنى من مرمى العين. وما هي إ أن يبلغ الأعرابي جماعة بنى سعد، فيعجبُ الناسُ بأمر حليلة وقد أدركتهم في غير جهد ولا كد، والأمدُ بعيد. والطريقُ شاقة. ويسأل الناس حليلة عن هذا الرضيع الذي تحمله، فإذا أنبأتهن ببنائه أظهرن لها الرقة والرثاء، وأضمرن التيه والكبرياء. ويمضى الراكب آخذًا بأطراف الحديث، وإن حليلة لتسبق أترابها حتى تُعييها، وإن أترابها ليقطن لها: أهذه أأتاك يا ابنة أبي ذؤيب التي أقبلت بك إلى مكة؟ فنقول: هي والله أتانى ما غيرتها. فيقلن: أربعى علينا<sup>(١)</sup> يا ابنة أبي ذؤيب؛ فما رأينا كالיום مرحًا ولا عدوًا.

ويبلغ الراكب ديار بنى سعد، ويثوب المراضع إلى بيوتهن، ويستأنفن حياة أهل البادية في أرض مُجدبة قل فيها الرعى والماء، وكثر فيها البؤس والشقاء. وَغَنَمُ حليلة ترعى كما ترعى الغنم، ولكنها تروح مِلاء حُقلا لا يظمأ أصحابها ولا يجوعون، وتروح غنم السعديين مهزولة نحيلة ناضبة، لا تكاد تَبْض بما يبيل الريق. وهم يقولون لرعاتهم: ويلكم! ارعو حيث ترعى غنم ابنة ذؤيب. فيقول الرعاة: والله إنا لنرعى حيث ترعى، وإنها والله لا تجد أكثر مما نجد، ولكنها تروح ملاء ونروح بغنمنا كما ترون، لا تُغنى من ظمأ ولا جوع. فيقولون: إن لابنة أبي ذؤيب لشأنا. وتتعم حليلة وينعم أبناؤها بحياة راضية هادئة، وينمو رضيعها ويزكو، وتقضى هذه الأسرة عامين راضيين لا تعرف فيها مشقة ولا جهدًا، ولا تجد فيها ألمًا ولا سقمًا، وإنما هي أيامٌ وليال تطردُ ويمضى بعضها في أثر بعض لا كدرَ فيها ولا تنغيص حتى إذا آن للرضيع أن يثوب إلى أمه نظرت حليلةٌ وزوجها فإذا الطفل قد نما وزكا كأحسن ما ينمو الأطفال ويزكون، لم يكن يُتم الثانية وكأنه ابن أربع، والقوم عليه حِرَاص، ولكنهم يؤدونه على ذلك إلى أمه كارهين.

ثم تهم حليلةٌ أن ترجع وقد أرضت أمانة وعبد المطلب، وأرضتها أمانةً وعبد المطلب، ولكنها لا تستطيع فراق الطفل حُبًا له وَحَدَبًا عليه، ورغبة في استبقاء ما وجدت في استصحابه من خير؛ فتلج على أمانة أن ترده معها إلى البادية، هناك حيث الهواء النقي، والسماء الصافية، والحياة الهادئة البريئة، هناك حيث لا مرض ولا وِباء ولا فساد. وتجيئها أمانة إلى ما أرادت وقد أثرت الطفل على نفسها، وضحت بلذة الأمومة في سبيل تنشئ أيهما تنشئًا صالحًا. وهل عرفت أمانة إلا التضحية! وتمضى حليلةٌ بالصبي راضية، وتبقى أمانة في مكة محزونة. وتتنظر بركةً إلى حليلة نظرات فيهن الحسد. وتتنظر بركة إلى أمانة نظرات فيهن اللوم.

(١) اربعى علينا، أي ارتقي بنا وانتظرينا.

قلتُ لمحدثي: فكيف قضى الصبي أيامه بعد ذلك في البادية؟ وكم أقام عند ظئره في ديار بني سعد؟ قال: إن لهذا لحديثاً عجيباً، مهما أبلغ من البراعة وقوة البيان فلن أقصه عليك في تلك السذاجة الحُلوة الأخاذة التي كان يقصُّها مكحول على أهل الشام. فاسمع حديث مكحول فإنك واجدٌ فيه مثل ما وجدت من اللذة والعظة والعبرة والمتاع.

قال مكحول: حدثني سَدَادُ بن أوس قال: بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقبل شيخٌ من بني عامر، وهو مِدْرَةٌ قومه وسيدُهم، شيخ كبير يتوكأ على عصا، فمثل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم قائماً، ونسبه إلى جده فقال: يا بنَّ عبدِ المطلب، إني أنبئتُ أنك تزعم أنك رسولُ الله إلى الناس، أرسلك بما أرسلَ به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء. ألا وأنت فوهتَ بعظيم! وإنما كانت الأنبياء والخلفاء في بيتين من بني إسرائيل، وأنت ممن يعبدُ هذه الحجارة والأوثان، فمالك وللنبوة؟ ولكن لكل قول حقيقة؛ فأنبئتُ بحقيقة قولك وبدء شأنك. قال: فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم بمسألته، ثم قال: "يا أبا بني عامر! إن لهذا الحديث الذي تسألني عنه نبأ ومجلساً، فاجلس". فثنى رجله ثم برك كما يبرك البعير. فاستقبله النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث فإقل: "يا أبا بني عامر! إن حقيقة قولِي وبدء شأنِي أني دعوةُ أبي إبراهيم وبُشرى أخى عيسى بن مريم، وأنى كنتُ بكر أمي، وأنها حملت بي كأنقل ما تحمل، وجعلت تشتكى إلى صواحبي ثقل ما تجد. ثم إن أمي رأت في منام أن الذي في بطنها نور. قالت: فجعلتُ أتبعُ بصرى النور، والنور يسبق بصري، حتى أضاعت مشارقُ الأرض ومغاربها. ثم إنها ودلتني فنشأت. فلما أن نشأتُ بُغضتُ إلى أوثان قريش وبُغضتُ إلى الشعر. وكنتُ مُسترضعاً في بنت ليث ابن بكر. فبينما أنا ذات يوم مُنتبذ من أهلي في بطن وادٍ مع أتراب لي من الصبيان نتقاذف بيننا بالجلَّة<sup>(١)</sup> إذ أتانا رهطٌ ثلاثة معهم طستٌ من ذهب ملئٌ تلجاً، فأخذوني من بين أصحابي، فخرج أصحابي هُرَاباً حتى انتهوا إلى شفير حتى انتهوا إلى شفير الوادي، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا: ما أرىكم<sup>(٢)</sup> إلى هذا الغلام فإنه ليس منا، هذا ابن سيد قريش وهو مُسترضعٌ فينا من غلام يتيم ليس له أب؟ فما يردُّ عليكم قتله؟ وماذا تُصيبون من ذلك؟ ولكن إن كنتم لا بد قاتليه فاختراروا منا أينما شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه، ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم.

فلما رأى الصبيان القوم لا يحিরون إليهم جواباً، انطلقوا هُرَاباً مسرعين إلى الحي يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم، فعمد أحدهم فأضجعتني على الأرض إضجاعاً لطيفاً، ثم

(١) الجلَّة: البعر.

(٢) الأرب (بفتح الهمز؛ والراء وبكسر الهمز؛ وسكون الراء): الحاجة

شق ما بين مرقِ صدرى إلى منتهى عانتى وأنا أنظر إليه لم أجد لذلك مسًا، ثم أخرج أحشاء بطنى، ثم غسلها بذلك الثلج فأنعمَ غسلها، ثم أعادها مكانها. ثم قام الثانى منهم فقال لصاحبه: تَنَحَّ فحاه عنى، ثم أدخل يده فى فأخرج قلبى، وأنا أنظرُ إليه، فصدّعه، ثم أخرج منه مضغَة سوداء فرمى بها، ثم قال بيده<sup>(١)</sup> يمّنة منه كأنه يتناول شيئًا، فإذا أنا بخاتم فى يده من نور يحار الناظرون دونه، فختم به قلبى فامتلاً نورًا، وذلك نُورُ النبوة والحكمة، ثم أعاده مكانه، فوجدت برد ذلك الخاتم فى قلبى دهرًا. ثم قال الثالث لصاحبه: تَنَحَّ. فَنَتَحَّى عنى، فأمرَ يده ما بين مرقِ صدرى إلى منتهى عانتى فالتأم ذلك الشق بإذن الله، ثم أخذ بيدي فأنهضنى من مكانى إنهاضًا لطيفًا، ثم قال للأول الذى شق بطنى: زنه بعشرة من أمته، فوزنوني بهم فَرَجَحْتَهُمْ. ثم قال: زنة بمائة من أمته، فوزنوني بهم فَرَجَحْتَهُمْ. ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنوني بهم فَرَجَحْتَهُمْ. فقال: دعوه، فلو وزنتموه بأمته كلها لَرَجَحْتَهُمْ. قال: ثم ضَمُونى إلى صُدُورِهِمْ، وقبلوا رأسى وما بين عينى. ثم قالوا: يا حبيب! لا تُرْعَ! إنك لو تدرى ما يراد بك من الخير لقرت عيناك. قال فبيننا نحن ذلك إذا أنا بالحقى قد جاءوا بحذافيرهم، وإذا أمى - وهى ظئر - أمام الحقى تهتف بأعلى صوتها وتقول: يا ضعيفاه! فانكبوا على فقبلوا رأسى وما بين عينى، فقالوا: حبذا أنت من ضعيف! ثم قالت ظئرى: يا وحيداه! فانكبوا على فضمونى إلى صدورهم وقبلوا رأسى وما بين عينى، ثم قالوا: حبذا أنت من وحيد! وما أنت بوحيد! إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض. ثم قالت ظئرى: يا يتيماه! استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك! فانكبوا على فضمونى على صدورهم وقبلوا رأسى وما بين عينى وقالوا حبذا أنت من يتيم! ما أكرمك على الله! لو تعلم ماذا يراد بك من الخير! فوصلوا بى إلى شفير الوادى. فلما بصرت بى أمى، وهى ظئرى، قالت: يا بنى ألا أراك حيًا بعد! فجاءت حتى انكبت على وضمتنى إلى صدرها. فو الذى نفسى بيده إنى لفى حجرها وقد ضمتنى إليها، وإن يدي فى يد بعضهم، فجعلت ألتفتُ إليهم، وظننتُ أن القوم يُبصرونهم، فإذا هم لا يبصرونهم. يقول بعض القوم: إن هذا الغلام قد أصابه لَمَمٌ<sup>(٢)</sup> أو طائفٌ من الجنِّ، فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويُداويه. فقلت: يا هذا، ما بى شىء مما تذكر؛ إن إرادتى سليمة وفؤادى صحيح ليس به قَلْبَةٌ<sup>(٣)</sup>. فقال أبى - وهو زوج ظئرى - ألا ترون كلامه كلامٌ صحيح! إنى لأرجو ألا يكون بابنى بأس. فاتفقوا على أن يذهبوا بى إلى الكاهن، فاحتملوني حتى ذهبوا بى إليه. فلما قصوا عليه قصتى قال: اسكتوا حتى أسمع من

(١) قال بيده: أهوى بها، وقال برأسه: هز. (عن أساس البلاغة).

(٢) اللمم (بالتحريك): طرب من الجنون.

(٣) القلبة (بالتحريك): الألم والعلة.

الغلام فإنه أعلمُ بأمره منكم. فسألني فافتصصتُ عليه أمرى ما بين أوله وآخره. فلما سمع قولي وثبَ إليّ وضمنى إلى صدره، ثم نادى بأعلى صوته: يا للعرب! يا للعرب! اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه! فواللات والعزى لئن تركتموه وأدركَ ليذَلَنَ دينكم وليسْفَهَنَ عقولكم وعقول آبائكم، وليخالفن أمركم وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط. فعمدت ظئري فانتزعتني من حجره وقالت: لأنت أعته وأجنُّ من ابني هذا! فلو علمتُ أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به، فأطلب لنفسك من يقتلك فأنا غير قاتلة هذا الغلام. ثم احتملوني فأدوني إلى أهلى... فأصبحتُ مُفزعاً مما فعل بي، وأصبح أثر الشق ما بين صدري إلى منتهى عانتى كأنه الشرك<sup>(١)</sup>. فذلك حقيقة قولي وبدء شأنى يا أبا بنى عامر". فقال العامرى: أشهد بالله الذى لا إله غيره إن أمرك حق. فأنبئنى بأشياء أسألك عنها. قال سلُّ عنك - وكان النبى صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يقول للسائل: سلُّ عما شئتُ وعما بدا لك، فقال للعامرى يومئذ: "سلُّ عنك" لأنها لغة بنى عامر، فكلمة بما علم - قال له العامرى: أخبرنى يا بن عبد المطلب ما يزيدُ فى العلم؟ قال: التعلّم. قال: فأخبرنى ما يدلُّ على العلم؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم: السؤال. قال: فأخبرنى ماذا يزيد فى الشر؟ قال: التماذى. قال: فأخبرنى هل ينفع البر بعد الفجور؟ قال: "نعم: التوبةُ تغسل الحوبة"<sup>(٢)</sup>، والحسنات يُذهبن السيئات، وإذا ذكرَ العبدُ ربّه عند الرخاء أغاثه عند البلاء". قال العامرى: وكيف ذلك يا بن عبد المطلب؟ قال: "ذلك بأن الله يقول: لا وعزتى وجلالى لا أجمعُ لعبدى أمنين، ولا أجمع له أبداً خوفين: إن هو خافنى فى الدنيا أمننى يومَ أجمع فيه عبادى عندى فى حظيرة القدس فيدومُ له أمنه، ولا أمحفه فيمن أمحق. وإن هو أمننى فى الدنيا خافنى يومَ أجمع فيه عبادى لميقات يوم معلوم فيدوم له خوفه. قال: يا بن عبد المطلب، أخبرنى إلام تدعو؟ قال: "أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له: وأن تخلع الأنداد وتكفر باللات والعزى، وتقر بما جاء من الله من كتاب أو رسول، وتصلى الصلوات الخمس بحقائقهن، وتصوم شهراً من السنة، وتؤدى زكاة مالك يطهرك الله بها ويطيّب لك مالك، وتحج البيت إذا وجدت له سبيلاً، وتغتسل من الجنابة، وتؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت، وبالجنة والنار. قال: يا بن عبد المطلب، فإذا فعلت ذلك فما لي؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم: "جنات عدن تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك جزاء مَنْ تَزكى. قال: يا بن عبد المطلب، هل مع هذا فى الدنيا شيء فإنه يُعجبني الوطاءة من العيش؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم: "نعم النصرُ والتمكن فى البلاد. قال:

(١) الشرك: أحد سيور النعل التي تكون على وجهها.

(٢) الحوبة (بفتح الحاء وضمها): الإثم.

فأجاب وأناب<sup>(١)</sup> قلت لمحدثي: إن هذا النبأ لعجيب! فمن لهذا الشيخ العامري بما كان يعلم من أمر إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء؟ قال: كان كثير من هؤلاء العرب يلقون اليهود ويلقون النصارى، فيعلمون منهم علم الأنبياء، وينتهون إلى نفور من دينهم القديم في غير اطمئنان إلى يهودية اليهود ونصرانية النصارى، فأخرجهم الله بالإسلام من حيرتهم تلك.

قلت لمحدثي: فكيف انتهى حديث مكهول إلى أهل الشام؟ قال أما علمت أن شداد بن أوس سكن فلسطين وأنفق شطراً طويلاً من حياته في بيت المقدس يُعلم الناس ويحدثهم، وعده بذلك النبي نفسه؟ فقد تحدثوا أنه كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يجود بنفسه فقال: مالك يا شداد؟ قال: ضاقت بي الدنيا. فقال: "ليس عليك، إن الشام سيفتح، وبيت المقدس سيفتح، وتكون أنت وولدك من بعد أئمة فيهم إن شاء الله تعالى"<sup>(٢)</sup>.

---

(١) تاريخ الطبري جزء ٢ من صفحة ١٢٦ على ١٢٨ طبعة القاهرة.

(٢) الإصابة جزء ٣ صفحة ١٩٥ طبعة المطبعة الشرعية بالقاهرة سنة ١٢٢٥.